المنهج السديد
في
شرح كفاية المريد

لأبي عبده محمد بن يوسف السنوسي

المتوفى سنة 899 هـ

المنظومة المسماة «بالجزائرية»

لأحمد بن عبد الله

الزواوي الجزائري

(800 - 884) هـ

تحقيق

الأستاذ: مصطفى مرزوقي

دار الهدى

عين مليلة * الجزائر

جميع الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع القانوني 94/480 عين مليلة * الجزائر

تدمك 1 - 068 - 60 - 9961

© دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع

المنطقة الصناعية ص ب 193 عين مليلة * الجزائر

الهاتف: 44.92.00 (04) / 44.95.47 (04)

الفاكس: 44.94.18 (04)

بســم اللّه الرحـمٰــن الرحيـــم

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنكَ رَحْـمَـة وَهَيِّئْ لَـنَـا مِن أَمْـرِنَـا رَشَـدا ﴾

سـورة الكهف 10

الإهـــــداء

الى روح والدَيَّ الكريمين في رحاب العزة والى العُلماء المؤمنين بهذه الأمة سَهَرُوا الليالي الطِوَال وبذلوا تضحيات في سبيل العقيدة الإسلامية.

اهدي لهم هذا الجهد داعياً الله سبحانه أن يجعلَه لهم وللمؤلف هذا الكتاب جُنة يوم لا ظلَّ الى ظِله ويحشرنا جميعاً في زمرة الذين يتقبل منهم كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله.

المحقـق

مصطفى مرزوقي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

رب يسر ولاتعسر..

إننا أمام سفر جليل، وعلم أعظم العلوم قدرا وأكثرها شأنا في حياة الإنسان، لكونه أساس الأحكام الشرعية، والعلوم الدينية، باعتراف جميع الملل والنحل، ولأهمية هذا العلم، فإنه لمن الواجب تذكير الناس بمثله العليا، كلما دب الخلل في العقيدة، وتباينت الأفكار في شأنها، عسى أن يهتدي الضال، وتطمئن النفوس المؤمنة، وخاصة في عصر كعصرنا هذا تسوده فلسفات مادية يسعى أصحابها إلى إبعاد الجانب الروحي من وجدان الإنسان، وقصر البحث على الحياة المادية.

وعلى ضوء ما تقدم، فإن هذا الكتاب الذي نحن بصدده والمسمى «بالمنهج السديد في شرح كفاية المريد» لأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. يقدم تحليلا وافيا للعقيدة الإسلامية الصحيحة «الا شعرية». ويعتبر من الكتب المهمة التي ألفها السنوسي في هذا العلم. ومن خلال قراءتي له تبين لي أن للكتاب قيمة علمية ودورًا هامًا في تطهير العقيدة الإسلامية من الأفكار الدخيلة عليها. فعقدت العزم على إخراجه من طي النسيان لأول مرة، رغم قلة بضاعتي، معتمدا على الله، وإيماني بأن الأمور العظيمة لا تنال بالطرق السهلة، كما يقولون، وزاد في عزمي أمران:

1 - إن التراث الجزائري يكاد يكون مفقودًا، إذا ماقارنا ماهو موجود حاليًا، مع ما ذكره علماء التراجم والسير، وحتى الباقي لم ينل العناية اللازمة من المسؤولين، والهيئات العامة، بالجمع والتدوين والدراسة والنقد، حتى يتبوأ المكانة التي يستحقها باعتباره عنوان مجد الأمة، ومرآة النضج الفكري لعلمائنا الذين أثروا الثقافة الإنسانية بعيون من الحكمة.

إن الجهود التي بذلت في نشر هذه الأمانة المقدسة، والحفاظ عليها، جهود فردية وضعيفة جدا، فوددت أن أدعمها بجهد متواضع بنشر هذا الكتاب حفاظا عليه من ناحية، ومساهمة مني في رفع المستوى الفكري لشبابنا عقليا وعقائديا، ولفت

نظرهم إلى الاهتمام بأمجادهم العلمية والتمسك بأصالة شخصيتهم الممتدة جذورها في التاريخ، لأن الأمة التي أعرضت عن ماضيها وتوجهت في بناء نهضتها على أسس لا صلة لها بها، تعتبر قد رضيت بوضع كيانها رهن رغبة وسلوك الآخرين.

فالكتاب إذن، يوضح طريق الإيمان بالله تعالى لمن لم ينل نصيبا كافيا في فهم العقيدة الإسلامية. ويبرز في نفس الوقت الوجه المشرق للحياة الدينية في الجزائر. ودور علمائها «وخاصة مدينة تلمسان» في ميدان العلوم العقلية وموضعهم بين سائر الأمم، مالهم وما عليهم من أصالة أو تقليد.

2 - إن الكتاب من المصادر المهمة في علم الكلام والعقيدة الأشعرية «أهل السنة والجماعة» حيث أبرز المؤلف بتفصيل الأدلة العقلية والنقلية التي اعتمد عليها في تدعيم هذه العقيدة، وفند في نفس الوقت شبهات الفرق الضالة حول وجود الله تعالى وصفاته. فإضافته إلى المكتبة الدينية يدعم أسس حياتنا الروحية... خاصة وأن المسلمين يتعرضون لأفكار وافدة زرعت الشك في أكثر قواعدهم الدينية والخلقية.

إن تقوية الشعور بالوحدة الدينية يحدث انسجاما في حياة الأمة ويجنبها المشاكل التي تظهر من حين إلى آخر، نتيجة عدم فهم للدين، أو غياب الفكر الرزين، وخاصة أننا لسنا بمعزل عن الأفكار والنظريات المطروحة على الساحة العامة.

إن المتأمل في التراث الإسلامي عموما وما أبدعه رجاله، يدرك أهمية هذا التراث، ويشعر بعظمة وقدرة هؤلاء الرجال على السعي في طلب المثل العليا، كالخلق العظيم، والسلوك المستقيم، حيث تمكنوا في فترة وجيزة من وضع نظام شامل للحياة يتلاءم مع كافة المعطيات... قواعد للحكم... نظام معاملات... علاقات دولية.. توجيه الطاقات الإنسانية إلى التفكير الجاد، والإخلاص في العمل.. فما بني على منهج الرحمن لا يبلى بطول الزمان..

أثـر الإيمـان في حيـاة الانسـان

لما كان موضوع الكتاب الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وبرسله وكتبه، فإني أريد بكلمتي هذه أن أشير وبايجاز إلى أثر الإيمان بالله في حياة الإنسان باعتباره اللبنة الأساسية للعقيدة، بل أعظم قضية في حياته. وقد فكر فيه كثيرون منذ القديم، وسلك كل منهم في إثبات وجود الإله أو نفيه.. طريقته الخاصة. وجرهم تفكيرهم بالاعتماد على العقل وحده في استجلاء الحقيقة إلى الاختلاف، وذهبوا في شأنه مذاهب شتّى، تبعا لتساؤلات مختلفة وربما متناقضة في نفس الوقت... من خلق الإنسان؟ وما قوة هذا الخالق؟ وما الفائدة من وجود الإنسان؟... هذه تساؤلات يجدها المرء في أعماق نفسه، ويجد بجانبها أصواتا خفية تتلهف للجواب... لكن لم يجده، ولن يجده إلى أن يطوي الله سجل الحياة... إن العقل البشري مهما بلغ من قوة الإدراك فهو محدود الطاقة ومقيد بقيود الزمان والمكان، لا يستطيع الإجابة عن أمور ليست من طبيعة المحيط الذي يعيش فيه، ولا مما يدخل في نطاق إدراكه. فإذا كان العقل السليم يدرك أن لهذا الوجود قوة تقف وراءه، فإن معرفة كنه هذه القوّة بعيدة المنال... كيف يعرفها الإنسان وهو يجهل نفسه... وكل ما خطر ببالك فالله مخالف لذلك... فإذا عجزالإنسان عن معرفة كنه القوّة الفاعلة في هذا الكون، فإن أثر صفاته يمكن له تلمسّها من المحيط المشاهد، فمن المخلوقات التي يراها صباح مساء يمكنه الحكم على وجود قوة لهذا الخالق... فالمخلوقات تدل على أن هناك خالقا. ومشاهدة النظام المحكم للكون دليل على وجود خالق ذي حكمة بالغة... وإن لم يعرف العقل كنه واجد الوجود، فقد عرف أثر صفاته... أو على الأقل يجزم بأنه موجود... وأحسن الإجابة المستندة على العقل والفطرة ما أجاب به أعرابي لمّا سئل: بم عرفت ربك؟ قال:«البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على العزيز القدير؟»

إن الاعتماد على العقل وحده في تصورمسائل ما وراء الطبيعة، يؤدي إلى نتائج لا تركن إليها النفس، وإلى الانزلاق في متاهات التفكير تضفى على حياة الإنسان كآبة لا نهاية لها، وإلى إنحراف مرد في العقيدة.

فالتساؤلات التي تنجم عن استعمال العقل في أمور لا تدرك بالحس تثمر نتائج غير مرضية، ما دامت قواعد الدين التي جاء بها رسل الله وأنبياؤه عليهم السلام خارج ميدان البحث والتفكير.

فالإجابة المثلى عن المشكلات، الخالدة... من أين جئنا؟ وإلى أين نصير؟ وما سر وجود الإنسان؟ ومن وراء عقدة الحياة والموت؟ لا يمكن تصورها إلا بالعودة إلى كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو الذي يوفر السكينة التي تنشدها النفس البشرية، ويفسر وظيفة الإنسان لماذا أُعد؟ وما أعد له؟ فالله سبحانه قد بوأ الإنسان مكانا عاليا، وجعله خليفة في الأرض حيث قال:﴿وإذْ قالَ رَبُّك لِلْمَلاَئِكَةِ إني جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾[1] ثم بين مهمته في هذه الحياة بقوله:﴿ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والانسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2] فهذا شرف لا تضاهيه شرف آخر، حيث قال:﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّه لاَ تحصُوهَا﴾[3] ثم هيأ له الأسباب اللازمة لأداء هذا الدور العظيم:﴿أَلَمْ تَرَ أن اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظَاهِرةً وبَاطِنَةً﴾[4] وأكرمه بأحسن شيء خلقه وهو العقل تمييزا له عن سائر الحيوانات. حيث قال الرسول ﷺ فيه:«أول ما خلق الله العقل. قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر. ثم قال الله عز وجل، وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أعاقب»[5].

فالإيمان بالله تعالى إذن ليس أمرا هامشيا يمكن التغاضي عنه، أو التهاون في شأنه، فهو أساس سر وجود الإنسان وسعادته دنيا وآخرة.

---

(1) سورة البقرة: 30. (2) سورة الذاريات: 56.
(3) سورة النحل: 18. (4) سورة لقمان: 20.
(5) أخرجه الطبراني في الاوسط وقال العراقي سنده ضعيف «الاحياء 83/1».

اسم الكتاب:

إن تسمية الكتاب «المنهج السديد في شرح كفاية المريد» لم يكن محل خلاف فقد ذكره المؤلف في المقدمة، وهو مثبت في جميع النسخ التي اطلعت عليها، وكذلك تاريخ تأليفه الذي ذكره في آخر الشرح بقوله:«وكان الفراغ من هذا التأليف المبارك يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شهر شعبان عام ثلاثة وثمانين وثمانمائة هـ» وهذا قبل وفاة صاحب النظم بسنة.

والكتاب ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: في علم الكلام حسب مذهب الأشاعرة مستندا على الأدلة العقلية بالنسبة لوجود الله، وصفاته، والنبوآت، وبالأدلة النقلية في السمعيات، وفي نفس المناسبات يرد المؤلف على الفرق الضالة بعنف شديد.

والشرح يشتمل على الأقسام الثلاثة المعروفة في علم الكلام - الإلهيات، النبوآت، والسمعيات - يشرح كل قاعدة بتفصيل غير ممل في المواضع التي تحتاج إلى تفصيل، وبإيجاز غير مخل في المواضع التي لا فائدة من الإطالة فيها، حيث يكون الخلاف لفظيا، أو يكون الموضوع متشعبا كثيرا لا يستوعبه المبتدئ باعتباره هوالمقصود بهذا التأليف.

والمتصفح للشرح يخرج بتصور واضح للمبادئ الأساسية للعقيدة الأشعرية، ويلم بمجمل نظريات الفرق الأخرى التي يعنيها علم الكلام كالمعتزلة، والخوارج، والمرجئة، إلخ. فالمؤلف يقرر النظرية أولا ثم يتبعها بأقوال من سبقه من أئمة هذا الفن فأكثر من النقل عن شرحي التفتزاني لعقيدة النسفي والمقاصد، وعن الآمدي في كتابه أبكار الأفكار، وعن المقري في قواعده. وشرح الإرشاد لابن دهاق، وشرح المعالم لابن التلمساني، والمحصل للرازي، والبرهان، والشامل لامام الحرمين، والأسرار العقلية للجرجاني، والشامل لابن عرفة، وشرح الأُبّي لمسلم، ومن التفاسير تفسير البيضاوي، ومجاهد، والفخر، وابن عطية، كما إستدل بآراء متفرقة لعدد من الأئمة.

أما القسم الثاني: فهو في التصوف، يدعو فيه إلى العودة إلى الله تعالىَ والتحرر من رق أغلال الدنيا. والاعتماد على البراهين العقلية والنقلية الصحيحة. وعدم اتباع أهواء النفس، والتمسك بما عليه السلف الصالح. فاستشهد في ذلك بما تضمنته كتب المتصوفين كالغزالي «وخاصة من منهاج العابدين» ومن المدخل لابن الحاج. ورسالة القشيري، والحكم لابن عطاء الله الأسكندري، كما اعتمد أيضا على أقوال لأقطاب التصوف كالجنيد، وإبراهيم بن أدهم. والسَّرِيّ السقطي. وذي النون المصري... وغيرهم.

والكتاب بصفة عامة يحدد القواعد التي يجب على المؤمن اتباعها عقيديا وفكريا، ويدعو إلى الاستعداد لمحاكمة أي تيار وافد، ويدعونا ألا ننخدع بالمظاهر والأسماء اللامعة، فكل ما نقرأه يجب أن نعرضه على قيمنا الروحية والحضارية، فما كان موافقا قبلناه، وما كان مخالفا تركناه في سلة المهملات.

والكتاب من انتاج عَلمين من أعلام التصوف في الجزائر خلال القرن التاسع الهجري وهما:

الأول: أحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي:

جاء في كتاب تعريف الخلف برجال السلف نقلا عن نيل الابتهاج مانصه: «وقال الشيخ زروق: كان شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزائري من أعظم العلماء اتباعا للسنة، وأكبرهم حالا في الورع، وكان يشير علينا بأنه ينبغي لمن وسع الله عليه من الدنيا أن يظهر عليه أثر نعمة الله تعالى، باستعمالها على وجه يباح، ولا يخل بالحق ولا بالحقيقة بأن يلبس أحسن لباس جنسه، أو وسطه، ويتخذ مرقعة إن أمكنه يجعلها عدته وأصل لباسه، فما دام غنيا عنها استغنى، وإلا فهي المرجع عنده، وقد شرح الامام السنوسي المنظومة المذكورة شرحا حسنا، وأثنى فيه على ناظمها بالعلم والصلاح، ولد سنة 800 وتوفي سنة 884 هـ» انتهى.

وأحمد بن عبد الله الجزائري يعد من العلماء الصلحاء ونظيرا للشيخ عبد الرحمن الثعالبي علما وعملا، واشتهر بإقامة زاوية له بمدينة الجزائر باسمه، خارج

السور الغربي لباب الوادي «ناحية قاعة الأطلس حاليا قرب الشاطئ»، وصارت فيما بعد مدفنا لعدد من مشاهير العلماء[1].

أما إنتاجه الفكري فلم يبق منه إلا المنظومة التي نحن بصددها.

والثانية؛ القطعة الشعرية التي نظمها حين وصول الشرح إليه، والثالثة؛ القصيدة التي رثى بها شيخه عبد الرحمن الثعالبي، وتدل هذه القصائد على مقدرة أدبية لغة وأسلوبا، لذا فنحن نعيد نشر ما عثرنا عليه من تراثه تعميما للفائدة، وتعريفا بمقام هذا العالم الجليل، وتسهيلا لمهمة الباحثين، ولعل الزمان يكشف لنا في المستقبل عن شيء آخر من أثره الأدبي والديني حتى تكتمل جوانب شخصيته العلمية والدينية، وتتضح معالم جهاده في نشر العلم، وأثره في المجتمع الذي عاش فيه، وأشير بهذا الصدد أني وجدت في الصفحة الأولى من النسخة الثانية المعتمدة في نشر هذا الكتاب ملاحظة حول الأبيات التي مدح بها شرح السنوسي للمنظومة، تثبت صحة نسبة هذه الأبيات له، وهذا نصها: الحمد لله ، من نظم الشيخ الامام البركة أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري ناظم القصيدة يمدح الشرح الذي وضعه الشيخ السنوسي على منظومته ما نصه:

شرحُ الكفايةِ أيها المتدَيِّنُ تحصيلُه فرضٌ عليكَ مُعينُ [2]
تجلو معانيه القلوبَ من الصدَإ وتُنيرُها واللّفظُ سهلٌ بَيِّنُ
ماهو إلا الروضُ يحسُنُ منظرًا مَنْ ذَا يرى حُسنا ولا يستحسِنُ
يَا ناظريه وكاسبيه بغبطة فأعزُّ من ثمن النَّفيسِ المُثمنُ
يَجزي مؤلّفه الإلهُ بجنةٍ دارِ النعيمِ بها تقرُّ الأعينُ

وكتبته من خط شيخ شيوخنا العالم العلامة سيدي امحمد المقري رحمه الله وكاتب الأحرف محمد بن مسعود لطف الله له. انتهى.

---

(1) التاريخ العام لعبد الرحمن الجيلالي. «ترجمة الخرّوبي» وتاريخ الجزائر الثقافي للدكتور سعد الله (85/1).
(2) الأبيات نشرها الحفناوي في كتابه الخلف برجال السلف «ترجمة أحمد بن عبد الله».

أما القصيدة التي رثى بها شيخه عبد الرحمن الثعالبي سبق أن نشر بعض أبياتها في مقدمة كتاب العلوم الفاخرة للشيخ عبد الرحمن الثعالبي في أوائل هذا القرن، ونشرها أيضا أبو القاسم الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف بقوله: وقال أيضا يرثي شيخه سيدي عبد الرحمن الثعالبي:

لقد جزعتْ نفسي لفقد أحبَّتي ... وحُقَّ لها من مثل ذلك تجزعُ[1]
ألمّ بِنا ما لا نطيق دفاعهُ ... وليس لأمرِ قدر اللهُ مرجعُ
جرى قَدرُ المولى بإنفاذ حُكمهِ ... ومن حُكمهِ أنّا نُطيعُ ونسمعُ
فلا تعجبَنْ إلا لغَفلتنا التي ... دهتنا فصرنا لا نخافُ ونسمعُ
قلوبٌ قستْ ما إن تلينُ وإنها ... لتعلمُ أن القبر مثوى ومضْجعُ
وإنّ فناءَ الخلقِ حتمًا وإنّما ... دوامُ البقاء حقا إلى الله يرجعُ
ومن بعدهِ هولُ القيامةِ واللّقا ... فياهولَ ما نلقى ومَا نتوقعُ
فدَعْ عنك دُنيَا لا تدومُ وإنّها ... وإن أظهرتْ حُسْنًا يروقُ ستخدعُ
ودعْ عنك آمالاً فقد لا تنالها ... وإن نِلتها نِلت الذي ليس ينفعُ
وبادر لتقوى الله إن كنت حازمًا ... هي العرْوَةُ الوثقى بها النارُ تدفعُ
وشمر لأخرى واستمع قولَ ناصح ... وحاذرْ هُجوم الموت إن كنت تسْمعُ
فأين خيارُ الخلق رُسلاً وأنبيا ... وأين رواةُ العلم في اللّحد أودعوا
فليس ذهاب الخير إلا بفقدهم ... وتشتيت شمل العلم قلْ كيف يُجمعُ
ولا خيرَ في الدنيا إذا لم يكن بها ... شمُوسٌ بأنوار الشريعة تسطعُ
ليوشك قبضُ العلم عنّا بقبضهم ... كما قاله خيرُ الأنام المشفّعُ
لقد بانَ أهلُ العلم عنا وأقفرتْ ... منازلهم إنّا إلى الله نرجعُ
كما بان عنّا شهمنا العالم الذي ... سناه بأنوار الحقيقة يسطعُ
أبو زيد المشهور بالعلم والتقى ... لهُ العلمُ فينا والمقامُ المرفعُ
هو العالم الموصوف بالنفع للورى ... به عنهم خطْبُ الحوادثِ يُرفعُ

---

(1) توجد نسخة للقصيدة كاملة مخطوطة مجامع البروقية «مكتبة المجاوي» وعليها اعتمدت في نشر هذه القصيدة.

سرور كريم يحسن يحسي مهابه ... مما إن يراه المرء إلا ويخضع
إذا ما بدا كالبدر بين صحابهِ ... وهم هالةٌ دارتْ به حين يَطلعُ
بمجلسه نورٌ ورائقُ لفظهِ ... ضياءٌ نفيس الدُّر بلْ هو أرفعُ
فوائده تترى عليهم وكلها ... لها عند أهل العلم والفهم موقعُ
ولا سيما أهل الارادة منهم ... فأنوارها تسري إليكم وتسرع
مجالسَ علم قد مضت فلو أنها ... تعود ولكن ما مضى ليس يرجع
نتيجة إخلّاص وصدق كأنهاَ ... سهامٌ بها يرمي القلوب فتخشعُ
ويلمع في أثنائها بمواعظٍ ... تنفر عن فعل القبيح وتردعُ
لقد غاب عن تلك المجالس معشرٌ ... فطوبى لأقوام بها قد تمتعوا
ولكن قد أبقى ذخائر جمعه ... تصانيف خيرات بها الله يجمعُ
فياله[1] قبرُ الشيخ طوبى لمعشر ... لهم من جوار الشيخ لحدٌ ومضجعُ
أعزّي أبا عبد الإله محمدًا ... ومن بجميل الصبر نرجو سيجمعُ
ونحن وإن كُنّا جميعا نُحبّهُ ... فقلبكَ أشجى للفراق وأوجعُ
أصبنا به فالله يعظم أجرنا ... ويُلهمنا الصبر الجميلَ ويوسعُ
فيا سيدي إني رثيتك راجيا ... سلُوَّ قليبٍ من فراقكَ موجعُ
ولي فيكَ حُبٌّ زائدٌ متمكنٌ ... حوَتْهُ سُويداءُ الفؤادِ وأضلعُ
لئن كان حظُّ العين منك فقدتهُ ... فإني برؤيا الروح في النومِ أقنعُ
على أنني بالإثر لاشكَ لاحقٌ ... ومن ذا الذي يرجو البقاء ويطمعُ
فنسألهُ سبحانه بنبيهِ ... عسى بفراديس النّعيم سَنُجْمَعُ
ويغمرنا والسامعين برحمةٍ ... ننالُ بها الفوز العظيم ونرتعُ
وأهدي صلاتي للنبي محمد ... لعلَّ بها في حوضِهِ العذْبِ نكرعُ
وأصحابهِ الغرّ الكرام وآله ... ومن كان للإحسان والحق يتبعُ
عليكم أبا زيدٍ الإمام تحيةٌ ... ورحمةُ مولانا الكريمِ تشفعُ

(1) في نسخة جامع البروقية: ولعل فلله وهي أصح عروضنا.

ثانيا: محمد السنوسي التوحيدي

ورد في كتاب تعريف الخلف برجال السلف نقلا عن نيل الابتهاج: محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب، اشتهر بالسنوسي نسبة لقبيلة بالمغرب، الحسني نسبة للحسن بن علي بن أبي طالب من جهة أم أبيه.

قال تلميذه الملالي في تأليفه: التلمساني: عالمها وصالحها وزاهدها وكبير علمائها الشيخ العلامة المتفنن الصالح الزاهد العابد الأستاذ المحقق المقرئ الخاشع أبو يعقوب يوسف. نشأ خيّرا مباركا فاضلا صالحا، أخذ كما قاله تلميذه الملالي عن جماعة منهم والده المذكور، والشيخ العلامة نصر الزواوي، والعلامة محمد بن تومرت، والسيد الشريف أبو الحجاج يوسف بن أبي العباس بن محمد الشريف الحسني، أخذ عنه القراءات، وعن العالم المعدل أبي عبد الله الحباك علم الاسطرلاب، وعن الامام محمد بن العباس الأصول والمنطق، وعن الفقيه الجلاب الفقه، وعن الولي الكبير الصالح الحسن أبركان الراشدي، حضر عنده كثيرا وانتفع به وببركته، وكان يحبه ويؤثره ويدعو له، فحقق الله فيه فراسته ودعوته، وعن الفقيه الحافظ أبي الحسن التالوتي أخيه لأمه «الرسالة»، وعن الامام الورع الصالح أبي القاسم الكنابشي «ارشاد أبي المعالي» والتوحيد، وعن الامام الحجة الورع الصالح أبي زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنه «الصحيحين» وغيرهما من كتب الحديث، وأجازة ما يجوز له وعنه، وعن الإمام العالم العلامة الوليّ الزاهد الناصح إبراهيم التازي ألبسه الخرقة، وحدثه بها عن شيوخه، وبصق في فمه، وروى عنه أشياء كثيرة من المسلسلات وغيرها، وعن العالم الأجل الصالح ابي الحسن القلصادي الأندلسي الفرائض والحساب، وأجازه جميع ما يرويه وغيرهم... توفي رحمه الله تعالى يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأخيرة عام 895 هـ[1]. انتهى

---

(1) أحسن دراسة كتبت في الجزائر عن حياة السنوسي ماكتبه جمال الدين بوقلي حسن في رسالة الجامعية «الامام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد». ووردت ترجمته أيضا في كتاب تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي 129/1، والتاريخ الثقافي للدكتور سعد الله. 85/1.

الوضع السياسي والاجتماعي في عهد السنوسي:

عاش أبو عبد الله محمد السنوسي في عهد مضطرب بعد أفول نجم دولة الموحدين، وانقسم المغرب العربي إلى ثلاث دويلات: فالمرينيون بفاس، والحفصيون بتونس، والزيانيون بتلمسان، وأضحت هذه الدول في نزاع شديد، وكان هدف كل من الحفصيين في الشرق والمرينين في الغرب ابتلاع الدولة الزيانية، فكثرت الغارات على أطرافها وعلى عاصمتها تلمسان، وبات الاستقرار بها حلما، والأمن معدوما والحياة الاجتماعية والثقافية تتلون مع الحياة السياسية، فقل الإنتاج، واضطربت الحياة الإجتماعية، وانعدمت قوافل التجار الذين يأتون من عدة مناطق، ومال السياسيون إلى الاهتمام بشؤونهم الخاصة، والعلماء إلى الانعزال والزهد. ودب التشاؤم في نفوس الناس وكسد الفكر وانعدم الابداع الفني، واتجه العلماء إلى اختصار جهود من سبقهم أو شرح المختصرات.

ورغم هذا فإن مدينة تلمسان لم تفقد مكانتها العلمية نهائيا، بفضل ما تتوفر عليه من كثرة العلماء، والمكتبات، والمدارس، والمساجد العامرة، وبفضل موقعها الذي يقال عنه:«تلمسان تمتاز بمائها، وهوائها، وتَلْحيفةُ نسائِهَا» وساعدها أيضا استقرار كثير من مهاجري الأندلس ومحطا لرحال العلماء المسافرين من المغرب إلى المشرق ومن المشرق إلى المغرب والأندلس فحافظت على العلوم المعروفة في ذلك العصر، فزارها في ذلك العهد كثير من العلماء من مختلف أنحاء العالم العربي، ورحل عنها آخرون.

إن الوسط العلمي الذي عاش فيه السنوسي مكنه من الاتصال بمختلف شيوخ تلمسان والأخذ عنهم فتعرف على مختلف الآراء والمذاهب المنتشرة في عصره، حتى صار آية في العلم. وقد قام تلميذه أبو عبد الله الملالي بجمع أحواله وسيرة شيخه في تأليف سماه «المواهب القدسية في مناقب السنوسية ... وقال فيه (... له من العلوم الظاهرة أوفر نصيب، جمع من فروعها وأصولها السهم والتعصيب، لا يتحدث في فن إلا ظن سامعه أنه لا يحسن غيره، سيما التوحيد والمعقول... وبالنسبة لعلم الباطن قال: فهو في علم الباطن قطب رحاها وشمس ضحاها...

يؤثر حب مولاه، ويراقبه، لا يأنس بأحد، بل يفر كثيرا إلى الخلوات، ويطول الذكر في معرفته، فانكشفت له عجائب الأسرار، وتجلت له الأبصار... جامعا بين الحقيقة والشريعة على أكمل وجه... وبفضل سعة علمه وفهمه للحقائق كان لكلامه وقع في الأسماع يعظ كل أحد بحسب حاله... وبالجملة فإن كافة أوقاته طول حياته مملوءة بالعلم والعمل، متعلما ومدرسا وواعظا سالكا طريق الزهد حتى صار أورع أهل زمانه، وحاله في الدنيا كالمسجون لشدة تقواه، فألف كثيرا من الكتب في مختلف العلوم، وان كان متخصصا في علم التوحيد، فإنه ألف في التفسير، والمنطق، والفقه، ولم يقتصر على العلوم الدينية، بل نال حظا من العلوم الدنيوية كالحساب والجبر والطب.)[1] هـ

فرغم قساوة الحياة والمحيط الاجتماعي، استطاع السنوسي أن يخترق حجب تلك الظروف ويتحسس الأخطار التي تهدد عقيدة أمته فدرس آراء من تقدمه من الاعلام وزاد عليها ترتيبا وتوضيحا واستدلالا، حتى بلغ مستوى التقدم جاعلا العقل السليم قائده والفكر الجاد الصحيح سبيله.

فإذا كان صرح الحضارة في كل عصر عبارة عن مختصر لمعارف إنسانية وجهود أمم مختلفة سالفة، يرثه الخلف عن السلف، وساهمت كل أمة في إثرائه بقدر ما تملكه من نشاط، فإن أثر بصمات فكر السنوسي في العلوم العقلية بالنسبة للحضارة الإسلامية ليس بالأمر الهين.

فالسنوسي ساهم بنصيب وافر تجاوز مداه حدود المغرب العربي فكتابه العقيدة الصغرى وشرحه لها (أم البراهين) كان له صدى طيب في الأندية الإسلامية، وأضحى يدرس في كثير من المعاهد العلمية إلى عهد غير بعيد، وتناوله العلماء بالشرح والتعليق في المغرب والمشرق. فشرح مثلا العقيدة الصغرى كل من الشيخ أحمد زروق وأبي عبد الله الملالي، ويحي الشاوي، وأحمد الغدامسي، ومصطفى الرماصي، ومحمد بن ميمون، وغيرهم كثيرون...

(1) تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي ترجمة السنوسي.

مبررات المعتمدة:

1 - بعد اطلاعي على المخطوطتين الموجودتين بالجامع الجديد ودراستي لهما، استقر رأيي على اعتماد النسخة التي أرمز إليها بحرف -أ- الأصل الأول وذلك لاعتبارين:

الأول: إن تاريخ نسخها يعود إلى سنة 996 هـ فهي أقدم النسخ المعتمدة، والأمر الثاني أن الناسخ يقول: أن النظم صحح على نسخة بخط الناظم «أحمد بن عبد الله». وعدد أوراقها 274 ورقة، مقاس 20 x 15 سم وعدد سطورها 19 سطرا في كل صفحة، ومعدل الكلمات في كل سطر نحو 10 كلمات، والنسخة كاملة بخط مغربي واضح وسليمة من الأخطاء اللغوية. ومن التخريج.

2 - النسخة الثانية من وقف الجامع الجديد أيضا يعودتاريخ نسخها إلى السنة 1034 هـ. وبخط مغربي واضح وعدد أوراقها 358 ورقة، مقاس 27 x 20 سم، وعدد السطور في كل وجه 17 سطرا، ومعدل الكلمات في كل سطر 10 كلمات، وصححت من بعض القراء ويقول المصحح أن التصحيح تم على نسخة معتبرة ويعود تاريخ هذا التصحيح إلى سنة النسخ، والنسخة سليمة من الأخطاء وكاملة والملاحظ أن بعض الأوراق جددت بعد النسخ وبخط غير خط الناسخ الأول.

3 - النسخة الثالثة والتي أرمز لها -ج- من أوقاف عبد القادر المجاوي (بمسجد البرواقية) ويعود تاريخ نسخها إلى سنة 1252 هـ وهي أحدث عهدا بالنسبة للأولين وعدد صفحاتها 662، ومقاس الصفحة 24 x 16 سم وعدد السطور 17 سطرا في الصفحة ومعدل الكلمات في كل صفحة نحو 12 كلمة وبخط مغربي جيد، وقد أثبت كل الفروق بينها وبين بقية النسخ، ومن الملاحظ أن في هذه النسخة نصا مقدار صفحتين لم يرد في بقية النسخ وقد راجعت نسخة المكتبة الوطنية وهي أقدم النسخ يعود تاريخ نسخها إلى 884 هـ، وجدت النص ألحق في هامش الصفحة بخط غير خط الناسخ وقد أشرت إلى ذلك في مكانه.

4 - نسخة زاوية الشيخ عبد الرحمن الثعالبي وهذه النسخة مبتورة من أول الكتاب ومن آخره بمقدار نحو 30 صفحة من كل جهة، وهي بخط مغربي واضح،

مملوءة بالأخطاء والتصحيف، وسقوط كثير من الجمل منها مقاسها 17 x 23، ومعدل عدد سطور صفحاتها 28 سطرا والكلمات في كل سطر 10 كلمات، اعتمدت عليها في تصحيح الكلمات المطموسة في إحدى النسختين السابقتين.

5 - نسخة الجامع الأخضر بقسنطينة وهي كاملة بخط مغربي واضح إلا أنها كثيرة الأخطاء وسقوط بعض الجمل وتحتوي على 162 ورقة وفي كل صفحة بمعدل 30 شطر وقد اعتمدت عليها في ترجيح الخلافات بين النسخ المتقدمة واثبات مافيها من الزيادات.

6 - نسخة عثرت عليها في إحدى الزوايا بمنطقة تيزي وزو، وهي مبتورة من الجهتين الأولى والأخيرة بنحو ثلث الكتاب وهي بخط مغربي، قليلة الأخطاء والتصحيف واعتمدت عليها في ترجيح الكلمات المختلف عليها في النسخ المعتمدة.

7 - نسخة المكتبة الوطنية اعتمدتها في تصحيح الكلمات التي وقع فيها خلاف بين النسخ المتقدمة. ويعود تاريخ نسخها إلى 884 هـ وهي بخط مغربي واضح وجيد وقليلة الأخطاء والتصحيف.

8 - الملاحظ أن من بين المخطوطات الموجودة توجد نسختان للمنظومة بمكتبة وزارة الشؤون الدينية وبهما بعض الأبيات زائدة، لم ترد في النسخ المعتمدة، وربما أن تلك الزيادات من القراء، لأن النظم في النسختين (أ،ب) صحح على نسخة الناظم، وقد أشرت إلى هذه الزيادات في الهامش.

وبما أن الاعتماد في إعداد هذا الكتاب كان على أربع نسخ بالدرجة الأولى كما أشرت في وصفها فإن بقية النسخ أرجع إليها عند الخلاف بين النسخ المعتمدة أو تكون الكلمة غير واضحة فيها، للتأكد من صحتها.

فما قمت به في نشر هذا الأثر العظيم أبينه فيما يلي:

* قارنت بين النسخ المشار إليها بكل عناية وأثبت الخلاف الموجود بينها في هوامش الصفحات.

• صححت الآيات القرآنية ونسبتها إلى سورها.

• صححت الأحاديث النبوية ونسبتها إلى مصادرها، وأشرت إلى الأحاديث التي لم أقف عليها.

• إن النصوص التي نقلها المؤلف عن غيره، وضعتها بين معقفين [....] وأشرت إلى موضعها في الكتب التي نقل عنها وأثبت كل الخلافات الموجودة بين الأصول وتلك الكتب في الهامش، مثل شرح المقاصد للتفتزاني تحقيق عبد الرحمن عميرة، ورسالة القشيري. أما المصادر التي لم أعثر عليها لكونها مفقودة أصلا، أو لم أعثر عليها بالجزائر فقد وضعت النص بين المعقفين بدون إشارة للصفحة التي يوجد بها.

9 - بعض الأسماء لشخصيات ورد ذكرها، لم أضع لها ترجمة بسبب أن المؤلف لم يذكر لها لقبا ولا كنية، ليمكن معرفتها، مثلا ذكر (مطرف) فهذا الإسم تسمى به ثلاث شخصيات متعاصرة تقريبا، ومشتهرة بالعلم والزهد، فالتعرف عليه لا يمكن إلا بالبحث عن النص في كتب أخرى، وهذا صعب جدا. ويستدعي وقتا طويلا وتوفير مصادر كثيرة.

والله الموفق

جانفي 1994